الباب الأول

خصائص المنهج الإسلامي

طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك منه شيئًا ولا تغفل عن شيء. جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض.

إنه يأخذ الكائن البشري كله، ويأخذه على ما هو عليه، بفطرته التي خلقه الله عليها، لا يغفل شيئًا من هذه الفطرة، ولا يفرض عليها شيئًا ليس في تركيبها الأصيل.

ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة فيعالج كل وتر منها، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر، فيضبطها بضبطها الصحيح.

وفي الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة. لا يعالج كلًا منها على حدة فتصبح النغمات نشازًا لا تناسق فيها. ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر، فتصبح النغمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل، الذي يصل في جماله الأخاذ إلى درجة الإبداع.

وحين يستعرض الإنسان وسائل الإسلام في التربية، يعجب للدقة العجيبة التي يتناول بها الكائن البشري. الدقة التي تتناول كل جزئية على حدة كأنها متفرغة لها، ليس في حسابها سواها، ثم الشمول، على هذا المستوى من الدقة. الشمول الذي يتناول الجزئيات جميعًا، وفي وقت واحد.

إنها دقة معجزة لا تصدر إلا عن الخالق المدبر العظيم.

«فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»[1].

والإسلام دين الفطرة. فما من نظام يعالج الفطرة كما يعالجها الإسلام، أو يستخلص من هذه الفطرة بعد تهذيبها وضبط إيقاعاتها ما يستخلصه الإسلام. إنه لا يعطي كل جانب من الإنسان غذاءه فحسب، بل يعطيه إياه كذلك بالقدر المضبوط

(١) سورة الروم ٣٠.

الذي لا يجيعه ولا يتخمه، ومن ثم ينطلق الإنسان وقد أخذ حظه من الغذاء الصالح، بمقاديره الصالحة، نشيطًا منتجًا متحركًا على الدوام.

وما من نظام آخر يعالج النفس البشرية بهذه الدقة وذلك الشمول.

هناك نظم آمنت بجانب واحد من الكيان البشري فراحت تعمل على تغذيته بما تراه صالحًا له.

نظم آمنت بالجانب المحسوس من الإنسان والحياة. كل ما تدركه الحواس فهو حقيقة. وما لا تدركه فهو غير موجود، أو ساقط من الحساب. ومن ثم راحت هذه النظم تهتم بكل محسوس على الأرض: الزراعة والصناعة والبناء والتشييد والإنتاج المادي على أوسع نطاق. وتهتم بكل محسوس في الكيان البشري، فحاولت أن تيسر له مأكله وملبسه ومسكنه، ويسرت له قضاء الشهوات.

ثم أغفلت من كيانه جانب الروح.

أهملت كل ما لا تدركه الحواس. أهملت الله والعقيدة، وما يشع من العقيدة من مثل وأخلاق.

وكانت النتيجة أن استمتع الناس بحياتهم الأرضية أعظم متاع، واستفادوا بالتنظيمات من كل نوع: التنظيمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمادية، ثم انهار المتاع كله نتيجة خواء الروح من الإيمان وخواء الحياة من العقيدة. وانقلب المتاع السهل الحلو إلى تكالب على شهوات الأرض يقض المضجع ويكدر الحياة، ويجعلها سباقًا دائمًا لا ينقطع ولا يترك فرصة للراحة: راحة الجسد أو النفس أو الضمير. تزايد الصراع فما عاد صراعًا في باطن النفس، ولا صراع فرد مع أفراد، أو صراع جماعة مع جماعة. وإنما أصبح صراع نفوس وأفراد وجماعات ودول وجيوش وطائرات وصواريخ. ودمار رهيب يهدد وجه الأرض.

ونظم آمنت بالجانب الروحي من الإنسان.

آمنت بأن هذا الجانب هو الجوهر الحق. وكل ما عداه خداع لا يثبت على حقيقة. زبد يذهب جفاء.

وراحت تغذي الروح بما ترى أنه غذاؤها الحق.

راحت تتعبد وتتنسك، وترفع الإنسان على ضرورات جسده كلها، وتقهر هذا الجسد لأنه دنس لا تنبغي إطاعته، ورجس لا ينبغي له أن يكون.

واستمتع الناس بحياة الروح. سبحوا في ملكوتها الطليق من أوهاق الضرورة، النظيف من أدران الشهوات، وحلقوا في آفاق عليا من الأفكار والمشاعر جميلة كالأحلام. ثم تمرد الجسد المكبوت على خلق الفطرة، وكفر الناس بمتاع الروح. أو أصابتهم السلبية الخاملة التي لا تنتج شيئًا في واقع الأرض، لا تنشئ ولا تعمر، ولا تهدم ولا تبني، ولا تغير الباطل ولا تقيم الصحيح من الأوضاع.

كلاهما انحراف عن السبيل.

كلاهما ينحرف بالإنسان عن الخلافة الحقة التي أرادها له خالقه يوم قال: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» . الخلافة الراشدة العاملة بفطرة الله ومنهج الله.